نظرية الشكّ بين استشراقية مرجليوث واستغرابية طه حسين

م.د يحيى ولي فتاح حيدر

جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الانسانية/ قسم للغة العربية

E-mail

Yahiawalie@yahoo.com

الملخص

إنَّ كتاب (في الأدب الجاهلي)،الذي رأى النور في أخريات الثلث الأول من القرن الماضي، كان صيدا سهلا للكثير من الأقلام التي تناولته بالنقد تارة وبالهجوم تارات؛ بسبب طروحاته الجريئة التي حاولت أن تنسف إرث أمة بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك لما أثاره من جدليّة حول صحة الشعر الجاهلي. إنّ شكوك (طه حسين) كان منطلقها ومحرّكها الأساس المستشرق الإنكليزي (مرجليوث) الذي كان قد نشر بحثا موسوما بـ(أصول الشعر العربي) حاول فيه نسج خيوط الشك حول موروثنا الشعري. والغريب في الامر أنّ استشراقيّة مرجليوث على علاتها كانت أخفّ وطأة من استغرابيّة (طه حسين) الذي كان مغالياً في تبنّي أفكار المستشرقين أكثر من المستشرقين أنفسهم.

Orientalist theory suspicion among Mrgelyot and Astgrabih Taha Hussein

Abstract

Lecturer. D. Yahia walie Fattah Header

University of Baghdad / College of Education / Bin Rushed

The book (in Pre-Islamic Literature), which saw the light in others the first third of the last century, was easy prey for many pens that addressed cash and sometimes attack Tarat; due to arguments bold tried to undermine the legacy of a nation but it came so far as to raised dialectic about the health of pre-Islamic poetry. The doubts Taha Hussein was premise and its engine basis Orientalist English Mrgelyot who had published research Musoma (b assets Arabic poetry) tried to spun yarn doubt about heritage of our poetic. The strange thing is that the Orientalist Mrgelyot at face value was lighter than Astgrabih Taha Hussein, who was exaggerated in adopting Orientalist ideas more than orient lists themselves.

المقدمة

أثارت قضية النحل والانتحال والوضع في الشعر الجاهلي ، قديماً وحديثاً، جدلا كبيراً في الأوساط الأدبية الغربية بعامة- من خلال آراء المستشرقين[١] التي وصلت إلينا- والعربية بخاصة، ولنا في نظرية الشك للدكتور(طه حسين)- تأثراً ببحث المستشرق الانجليزي مرجليوث[٢]الموسوم(أصول الشعر العربي)- ومأأثارته من آراء مبثوثة بين دفتي كتابه الموسوم (في الأدب الجاهلي)- والذي كان قد وَسَمهُ من قبل(في الشعر الجاهلي) ثم عَدِلَ عن هذه التسمية لأنها تُعدُّ اعترافاً ضمنياً منهُ بصحة الشعر الجاهلي- ما يغري أي باحث من أن يدلو دلوه فيها؛ لأنها تُعدُّ أرضية خصبة للتأمّل والوقوف على حقيقة هذا الإرث ؛ فلم أجد خيرا من أنْ أعاود قراءة كتاب(في الأدب الجاهلي)- الذي كنت قد قرأته منذ سنوات وأثار فيَّ ما أثار من تساؤلات كثيرة في حينها بسبب طروحاته الجريئة التي حاولت أن تنسف إرث أمة بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك- وأن أقف على جلّ الآراء التي تضمنها الكتاب، مستعرضاً إيّاها تارة ، ومستنطقاً إيّاها تارة ، ومحاكماً لها تارات كلّ ذلك انطلاقاً من الآراء نفسها وانتهاءً بها- كمايُقال من فمك أقول- لذا كانت هذه المحاولة الجادّة للوقوف على حيثيات نظرية الشك التي كان قد طرحها متأثراً بالمنهج الفلسفي لـ(ديكارت) عميد الأدب العربي في القرن الماضي سالكاً إيّاها سبيلاً للوصول إلى حقائق الأشياء. ولقد حاولنا عرض أهم الآراء التي أوردها في قضية النحل والانتحال والوضع ، ومن ثم استنطاق هذه الآراء ومحاكمتها محاكمة علمية متجرّدة عن كلّ ما قد يشوبها من أهواء أوميول شخصية مُخلِّة بالمنهج العلمي الدقيق؛ وكان منهجنا في كل ذلك خلوَ الذهن من كل ما قد قيل من قبل في هذا الموضوع من آراء مناوئة متخذين من النقد السيري متّكأً. وفي نهاية البحث كان لزاماً علينا أن نشير وبإيجاز إلى أهم الآراء التي تصدّت من قبل لهذه النظرية- التي كانت قد شكّكت في جُلِّ ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي إلا قليله التي كانت من دون شك نظرية قاسية بحق إرثٍ عظيم لأمة أعظم- ولانريد إصدار أحكاما جاهزة قبل عرضها فدراستها ومن ثم

استنطاقها ومحاكمتها؛ وصولا إلى النتائج العلمية المتوخاة من دراسة مثل هذه. ممّا لاشك فيه انَّها ليست بالقضية السهلة، بل في غاية الأهمية ومن الخطورة بمكان؛ لأنّها تمثّل إرْثَ أمَّةٍ – وأيَّة أمة– أمّة نقلت العلوم والمعارف إلى أقاصي الأرض، مشارقها ومغاربها فكان ثمرة هذا أنْ يُرَدَّ على صنيعها بأنْ يتصدّى بعض المستشرقين من ضِعاف النفوس– غيرةً وحسداً وربّما بدوافع أُخَرَ– لدراسة الشعر الجاهلي المَرْوِي، ومن ثم النفاذ إلى المناطق الهشة في جسده القابلة– كما هو الحال مع كل مُنجز أدبي شفاهي(مَرْوِيٍّ) شعراً كان أم غيره– للشك والطعن، والأدهى من ذلك أنْ يتبنى بعض الأدباء والمثقفين من العرب هذه الآراء والدفاع عنها أكثر من المستشرقين أنفسهم .

والله وليّ التوفيق

نظرية الشكِّ بينَ استشراقيّة مرجليوث واستغرابيّة طه حسين

إنَّ أولَّ مَنْ شَقَّ طريق البحث والتقصي في هذا الموضوع من العرب هو(مصطفى صادق الرافعي) في كتابه الموسوم (تاريخ آداب العرب) الذي صدر سنة إحدى عشرة وتسعمِائَة وألف للميلاد. وكان قد أفرد باباً بعينه للرواية والرواة في الجزء الأول تجاوزت صفحاته الخمسين بعد المائة[٣] وقد أورد كل ما قاله القدماء من آراء في قضية النحل والانتحال والوضع ، بيد أنَّهُ لم يَبِتَّ في المسألة بتاً قاطعاً بل اكتفى بعرض هذه الآراء. وهكذا سلك الرافعي مسلك القدماء وسار في فلكهم ، مكتفياً بعرض ما أوردوه في كتبهم من أحاديثَ هنا هناك ، من دون أنْ يحاول استنطاق ومحاكمة النصوص والأحاديث التي كانت بين يديه؛ لذا بقيت القضية سابحة في فلك الأقدمين. وأخيرا تصدى للقضية رجل يخلق من اللاشيء شيئاً ومن اللا قضية قضية فسبر أغوار هذه القضية ، ليعرض ويحلل ويُفند ويعارض بما عرُفَ عن عميد الأدب العربي من أُسلوب لايُجارى ولايُبارى من حيثُ الطرحُ والمناقشة والإتيان بكل ما يدعم وجهة نظره وإنْ كانت في بعض الأحيان على حساب الحقيقة العلمية ، لا لشيء إلا لإثبات ما يريد إثباته . وقد اعتمد في جُلِّ استشهاداته على الأخبار والروايات التي وصلت إلينا من القدماء

سالكا بذلك الدرب نفسه الذي سلكه المستشرق (مارجليوث) في التأكيد والتفنيد والعرض والاستنتاج ، والتوسع في دلالات الروايات والأخبار وتعميم الحكم الفردي والشاذ في بعض الأحيان وجعلها سُنَّة عامة تجري على كل الشعر الجاهلي من دون استثناء إذ يقول:"**إنَّ الكثرة المطلقة مما نُسَمِّيه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ،إنَّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وإنَّ هذا الشعر الذي يُنسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لايُمكن من الوجهة اللغوية والفنية أنْ يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أنْ يكون قد قِيلَ وأُذِيعَ قبل أنْ يظهر القرآن**"(٤). ويحاول انطلاقاً من مبدأ الاعتدال البحثي والمعرفي أنْ ينأى بنفسه عن التطرّف في شَكِّهِ ؛ لذا يُقسِّم الشعر الجاهلي فيقول:"**إنَّا نرفض شعر اليمن في الجاهلية، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضاً... أقلّ ما تُوجِبُهُ علينا الأمانة العلمية أنْ نقف من الشعر المضري الجاهلي ، لانقول موقف الرفض أو الإنكار، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط** "(٥). ومن خلال السطور آنفة الذكر بإمكان القارئ أنْ يستشف بوادر الرفض القاطع للشعر الجاهلي سلفاً من(د. طه حسين)؛ بيد أنَّه لكي يُعطي للمنهج العلمي ما يتطلبه ولكي لايُتهم بالأحكام الجاهزة المبسترة، كذلك لكسب ودّ القارئ – كما أرى– لجأ لهذا التقسيم الذي لايُفهم منه إلا الرفض ليس إلا؛ فهو يرفض جُلَّ شعر اليمن في الجاهلية ، ويكاد يفعل الشيء نفسه مع شعر ربيعة ، والأمر ينطبق على الشعر المضري مع قليل من التحفظ . وإلا بماذا يُفسر مفردات مثل: الشك ، والريبة ، والحذر، والتحفظ ، والاحتياط سوى أنّها الوجه الثاني من عملة الرفض . إذن نحن إزاء نظرية شكِّيّة– إنْ صح التعبير– لم نألف من قبلُ مثلها فيما تسنى لنا من اطلاع على آراء القدامى. بيد أنّنا نلمسها لمس اليقين لدى بعض المستشرقين بعامة ولدى (مرجليوث) بخاصة الذي لاشك هو الذي ترك الباب مفتوحاًعلى مصراعيه أمام (د. طه حسين) ليدلو دلوه منطلقاً من المثل العربي القائل: (سُوءُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْفِطَن) فكان له ما أراد لكي يُفصِّل القول فيها في كتابه (في

الأدب الجاهلي) وكما هو معروف فقد حشَّد كلّ إمكانياته اللغوية والأدبية التي لايختلف عليها اثنان ، متخذاً من أسلوبه الآسر في العرض والطرح والمناقشة والتأكيد على ما يؤيِّد رأيه وتفنيد ما يخالف مذهبه بطريقة تُنْسِي قارئ كتابه من أنْ يعمل الفكر فيما يُقدم إليه من آراء ، إلا مَنْ تحصَّن بالشك العلمي الذي يُخَيَّلُ إليَّ لم يكن معهوداً في بداية القرن الماضي ومنتصفه على أقل تقدير إلا ما نَدَر، كماهو حال الأدباء والمثقفين رجال الفكر بل حتى رجال الدين المتمثلين برجال الأزهر الذين تَصدَّوا لكتاب (في الأدب الجاهلي) فيما بعدُ انطلاقاً من حرصهم وخوفهم على هذا التراث الأدبي الذي يمثل السِّفر الخالد لهذه الأمة التي أختارها الباري جل شأنه لحمل راية الإسلام . ويتضح لقارئ كتاب (في الأدب الجاهلي) أنَّ (د. طه حسين) يحاول تثبيت نظريته من خلال الإحاطة بأركان ثلاثة هي: **دَوَافِعُ شَكِّهِ فِي الشِّعرِ الْجَاهِلِي** التي يبدو أنّها جاءت بسبب من كثرته حسب اعتقاده ؛ ممّا دفعه ذلك للريبة والشك في معظم ما وصل إلينا منه إنْ لم يكن جُله، ويبدو أنَّ من جملة الأمور التي رابته"**أنه لايمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين**"(٦) ثم يفصّل القول في كلّ منها على أمل أن تكون خيرَ داعمٍ لما ذهب إليه ؛ فيقول:"**إنَّ هذا الشعر الذي يُضاف إلى الجاهليين يُظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية أو ليس عجيبا أنْ يعجز الشعر الجاهلي كلَّه عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين؛... أفتظن أنَّ قريشا كانت تكيد لأبنائها وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحي في سبيلها بثروتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا...**"(٧). وردُّنا على ما تقدم- والذي لايبدو حجة دامغة لنقض الشعر الجاهلي- هو أنْ ليس من الضروري بمكان أنْ يمثل الشعر في جلِّه بل حتى في أقله الحياة الدينية ، ويصوِّرها تصويراً حرفياً وبأدق التفاصيل التي لاتدع مجالاً للشكّ ، وهل هذا الأمر ينسحب فقط على الشعر الجاهلي دون غيره ؟ وهل من الضروري أنْ يكون أي مُنجَز شعري نقلا

حرفيا لكل الوقائع اليومية ومنها ما يتعلق بعلاقة المخلوق بخالقه- هذه العلاقة التي قُدِرَ لها أنْ تسمو فوق كلّ شيء- فالفن غايته الأساس إبراز الجوانب الإبداعية – التي قد تتعارض أحيانا وبعض تعاليم ومعتقدات الدين- ناهيك من أنَّ الشعراء ليس بالضرورة أن كانوا على التزام بالمعتقدات الموجودة آنذاك، فمشارب الناس تختلف، ثم يجد في الجدال الديني ما يدعوه للانتقال إلى الحياة العقلية والحضارية ، فيقول:"**أفتظن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا! لم يكونوا جهالا ًولا أغبياء، ولاغلاظاً ولا أصحاب حياة جافية، وإنّما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة..**"(٨). حقيقة لا أجد في هذا الاعتراض ما يُسوِّغه ، إنْ وجد للاعتراض الأول ما يُبرره ، وأكاد لا أفهم أنَّى خطر له في أنْ يجد في ما تقدّم مُسوَّغاً في إقناع المتلقي بشكوكه؟ ثم ينتقل بعد ذلك للحياة السياسية ويرى أنَّ العرب"**كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوي، قسَّمهم أحزاباً وفَرَّقهم شِيَعاً. أليس القرآن يحدثنا عن الروم [الروم /١-٤]وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين... لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين...**"(٩) ونحن بدورنا نتساءل هل انَّ في الشعر الجاهلي ما يؤكد أنَّ العرب كانوا في عزلة تامة عمّن حولهم من أقوام ؛ لكي تُعدَّ مثلبةً وطعنةً نجلاء في صحته ؟! وفي الحياة الاقتصادية يقول: فأنت تستطيع أنْ تقرأ امرأ القيس كلّه وغير امرئ القيس، وأنت تستطيع أنْ تقرأ هذا الأدب الجاهلي كلّه دون أنْ تظفر بشيء ذي غناء يمثل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم ويشير في الوقت نفسه إلى إشارات القرآن إلى هذه الحياة الاقتصادية وكيف نجد أنَّ القرآن يُقسِّم العرب إلى فريق الأغنياء وفريق المعدمين بل الذين ليس بحوزتهم ثروة تمكنهم من مقاومة المرابين والاستغناء عنهم(١٠)، ويتحدث عن الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي قائلاً :" **فهذا الشعر لايُعنى إلا**

بحياة البادية والصحراء ، وهو لايُعنى بها إلا من نواحٍ لا تمثلها تمثيلاً تاماً. فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسّاً ولايتغلغل في أعماقها، وما هكذا نعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنّا لانكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكراً لبحر أو الإشارة إليه، فإذا ذكر فذِكْرٌ يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل. أمَّا القرآن فيَمنُّ على العرب بانَّ الله قد سَخَّر لهم البحر وبأنَّ لهم في هذا البحر منافعَ..."(١١) كأنّي بعميد الأدب العربي يَنسى أويَتناسى أنَّ الصحراء والبادية هما المرتع الحقيقي للعربي وسواهما هو الدخيل؛ لذا كان بدهياً أنْ يصف الشاعر الجاهلي ما حوله من نؤى وأثاف وفياف وأحجار وقفار ويُطيل الوقوف على الأطلال، فهذه هي حياة الجاهليين بعامة ، والشعراء الجاهليين بخاصة. أمّا مَنْ يُردِّدون سوى ذلك فهو العارض وليس القياس.

اختلاف اللغة ويرى أنَّ هذا "**الشعربعيد كل البعد عن أنْ يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة انه قيل فيه**"(١٢). ثم يؤكد أنَّ هناك خلافاً قوياً بين لغة حِمْيَر(وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) مُستنداً في ذلك على ما قاله (أبو عمرو بن العلاء):"**ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا**"، أضف إلى ما تقدّم أنّ البحث الحديث أثبت بشكل لايقبل الشك خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كانت متداولة في جنوب البلاد العربية، وبين التي كانت متداولة في شمال هذه البلاد(١٣) وهنا للوهلة الأولى يبدومحقاً فيما يذهب إليه، بيد أنَّ إعمال الفكر والتبصّر قليلاً يقودنا إلى أنّه ربّما كانت هناك لغة أدبية مشتركة بين هذه القبائل لِمَ لا ولنا في يومنا الحاضر خير دليل لِمَا نذهب إليه ، فاللغة المشتركة بين البلاد العربية هي القاسم المشترك في كل المنجزات العربية بمشرقها ومغربها .

اختلاف اللهجات وبعد أن ينتهي من الشعر الذي يضاف إلى القحطانيين ينتقل إلى الشعر الذي يضاف إلى العدنانيين قائلاً:" **فالرواة مجمعون على أنَّ قبائل عدنان لم تكن متّحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أنْ يظهر الإسلام فيقارب بين**

اللغات المختلفة ويزيل كثيراً من تباين اللهجات. وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام... ولكننا لانرى شيئا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي. فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح... تستطيع أنْ تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء مما يشبه أنْ يكون اختلافا في اللهجة،أو تباعداً في اللغة ،أو تباينا في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعري هو هو...فنحن بين اثنتين: إمّا أنْ نؤمن بأنّه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي، وإمّا أنْ نعترف بأنَّ هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملا. ونحن إلى الثانية أميل منّا إلى الأولى"[١٤]. وقوله (نحن بين اثنتين) لايُلزمنا بوجوب أخذ إحداهما دون الأخرى؛ عليه بما أنّ له كلّ الحقّ فيما يعتقد وفيما يذهب إليه وفيما يميل إليه من أنّ الشعر الجاهلي لم يصدر عن هذه القبائل وإنّما حُمِلَ عليها بعد الإسلام حملاً؛ انطلاقا من قول الخليفة عمر بن الخطاب(رض):" **كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب... فلما كثر الإسلام ... راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولاكتاب مكتوب ، فألفوا في ذلك**"[١٥] فللمتلقي الحق نفسه في أخذ ما يراه مناسبا لقناعاته من أنه ربّما لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولاحتى في المذهب الكلامي؛ فيكون هذا الشعر الذي قد وصل إلينا شعرا جاهليا يمثل قائليها حقيقة وليست منحولة أوموضوعة أومختلقة.

وفيما يتعلق **<u>بقضية الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن الكريم والحديث</u>**: يرى أنَّ العلماء وأهل اللغة قد اتخذوا الشعر الجاهلي مادة ثرَّة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث وما شابه. والعجيب في الأمر أنّهم لم يجدوا في ذلك عسراً ولامشقة ؛ وكأنَّ هذا الشعر قُدَّ على القرآن والحديث مثلما

يُقَدُّ الثوبُ على لابسه من دون زيادة أو نقصان؛ لذا فهذه الدقة العجيبة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي يستدعي وقفة لِمَنْ يعمل الفكر أولاً- وقبل كل شي- ولايأخذ الأمور على عواهنها ؛ لأنَّ الدقة في المماثلة والموازاة تدعونا من دون أدنى شك إلى الشك والحيرة . والسؤال المطروح : كيف يمكن لنا أنْ نسلِّم أَنَّ هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة ليس إلا ؟ كلا، هو التكلف عينه وبذل فيه أصحابه جهداً جهيداً للوصول إلى مراميهم(١٦). وهنا قد نرى مايراه ، بيد أنَّ الأمر لايبدو بهذا السوء الذي يصوّره لنا، وكأنَّ جُلَّ الشعر الجاهلي قد وُضِعَ وضعا لالشيء إلا لخدمة الظواهر اللغوية المستعصية ، والقواعد النحوية التي كانت- من دون شك- بحاجة أحيانا إلى ما تتلقاه من دعم من هذه الشواهد ، بيد أنَّ هذا الأمر لايمكن أنْ ينسحب على كل علماء اللغة وأهل الكلام ففيهم- والقائمة أطول من نشير إلى شخوص بعينهم - من أهل الثقة والدين أكثر من أن يُعدُّوا أو يُحصَوا ، ولكن ذلك لايمنع أنْ تُوجد بعض الثغرات هنا وهناك من قبل أصحاب النفوس المريضة وأنصاف العلماء المشكوك فيهم ، ومن المؤكد من أنَّهم كانوا معروفين في زمانهم . فالمسألة إذن تبدو لِمَنْ يعمل الفكر والمنطق نسبية ولا تستدعي التعميم والإطلاق ، بحيث نحكم على إرْثِ عصر كامل من خلال ما يراودنا من حيرة وشك إزاء بعض الأقلام من ذوي أصحاب النفوس المريضة والتي لايثق بها التاريخ نفسه.

وكانت **شفويةُ الرواية** طوقَ النجاة الذي تشبَّث به لِما لها من أهمية قصوى في دعم نظريته التي دفعته إلى أنْ ينعت جُلَّ الشعر الجاهلي بأنَّه منحولٌ وموضوعٌ ؛ لأنّه لم يصلنا إلا عن طريق الرواية الشفوية ، واللافت للنظر أنَّه لم يُفصِّل فيها القول- هنا كما هو الحال في الأمور آنفة الذكر- بل اكتفى بإشارات عابرة دون أن يقف عندها طويلا ؛ بسبب من أنَّ حديثه في جملته مبنيٌّ على هذا الدافع والذي يبدو- في ظني- هو الذي فتح له باب البحث في الشعر الجاهلي ومن ثم إطلاقه لما يُسمَّى بنظرية الشك ، ولعل في قوله:"**وحسبي أنَّ شعر أمية بن أبي الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشُكَ في صحته كما شَككت**

في شعر امرئ القيس والأعشى وزهير..."[١٧] خير دليل على ما تقدّم ، وفيه ما يُغنينا عن الاستطراد لتأكيده. وأخيراً لنا في قوله:" **إنَّ من الحق علينا لأنفسنا وللعلم نْ نسأل: أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبُتَ أنَّهُ لايمثل حياة العرب الجاهليين ولاعقليتهم ولادياناتهم ولاحضاراتهم ، بل لايمثل لغتهم ، أليس هذا الشعر قد وُضِعَ وضعاً وحُمِلَ على أصحابه حملاً بعد الإسلام ؟ أمَّا أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا. ولكننا محتاجون بعد أنْ ثَبُتَتْ لنا هذه النظرية أنْ نتبين الأسباب المختلفة التي حملت الناس على وضع الشعروالنثر ونحلهما بعد الإسلام**"[١٨]خلاصة **لدوافع شكه آنفة الذكر** في الشعر الجاهلي وانطلاقة **لأسْبَابِ النَّحْلِ والوضع** فيه التي يعزوها إلى أمور **السياسة** والمقصود منها هنا العصبية القبلية– ليست بمفهومها الواسع الشامل– بدليل أنه لايستطرد في ذلك بل على العكس يقتصر في هذا على العصبية بين المهاجرين والأنصار، ويورد لإثبات رأيه ، روايتين ، الأولى: ما يُروى من أنّ الخليفة عمر بن الخطاب (رض) نهى عن رواية الشعر الذي يتهاجى بها المسلمون والمشركون أيام الدعوة النبوية[١٩] ويتخذ من هذه الرواية دليلا قاطعا فيقول:"**هذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى وهي أن قريشا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضا أيام النبي وكانوا حراصا على روايته، ويجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لايشعر به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر**"[٢٠]، وتأكيداً لهذه الرواية يشير إلى ما أمر به الخليفة عمر بن الخطاب (رض):"**قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يُوقظ الضغائن، فأما إذ أبَوا فاكتبوه".[ويذهب أبعد من هذا قائلا:]**"**وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألايضيع**"[٢١]. في هذا المقام لانجد ما يبرر إصراره على أنْ يأخذ من الحقائق بل الوثائق التاريخية ما يوافق أهواءه ويدعم نظريته، وإنْ كان هذا الأمر في بعض الأحيان يخالف العقل والمنطق بل منهج البحث العلمي الذي يُلزمنا بأنْ لانأخذ أنصاف المعلومة أو أنصاف الحقائق ؛ لأنها من دون شك لاتُفضي بنا إلى ما يصبو إليه المنهج الدقيق. وهنا رغم ما ينقله هو شخصيا من أنّ الخليفة

عمر بن الخطاب (رض) قد نهى عن الأشعار التي قد تُسيء بشكل أو بآخر إلى الإخوّة الإسلامية ناهيك عن رابطة الدم والنسب التي لاشك أنّها كانت قد ضربت أطنابها في جذور هذه العلاقات. وإنْ سلَّمنا بما يذهب إليه ويعدّه دليلا لالبس فيه من أنَّ المسلمين من الأنصار ومن أهل مكة قد تذاكروا فيما بينهم ، فلا أظن أنَّ هذا الأمر مدعاة أن نُعمِّمه على كل الأنصار وكل أهل مكة ، أعني ليس بالضرورة أن يشمل كل الشعراء، فهي قد تكون مجرد أهواء شخصية للبعض من كلا الطرفين- إنْ صحت رواية هذه المذاكرة وسلمنا بوقوعها- وقد لايحتمل هذا وجهاً من الصحة. وإنْ كان جُلُّ الأمر يعتمد على الشك والظن والتخمين ؛ حق لنا أنْ ندلو دلونا ونرى في نهي خليفة المسلمين رادعا مانعا لكل من سوَّلت له نفسه من الخوض في أعراض المسلمين وتأجيج الفتنة بين المسلمين مما يقود إلى الفرقة والتناحر والاقتتال؛ لذا كان بدهيا أنْ تكون هذه الأمور غير طاغية بالشكل الذي يصوّره لنا. أمّا فيما يتعلق هل قال الخليفة عمر بن الخطاب (رض)هذا أم لم يقله فأنَّى له أنْ ينفي ما بَنَى عليه رأيه ؟ ولِمَ أورده إنْ لم يكن مؤمنا به ، أو لنقل : كيف يجزم قاطعا أنَّ الأنصار كانت تكتب هجاءها لقريش أيام الدعوة للنيل والانتقاص منهم ؟ في ظني أنّ البحث العلمي- كما هو معروف ومتعارف عليه - يتطلّب الجديّة والتأني وسعة البال قبل إصدار الأحكام، لا كما يصفه (د.طه حسين) قائلا:"**ولو أنَّ لدينا من الوقت سعة وفراغ البال ما يحتاج إليه هذا الموضوع للهونا وألهينا القارئ بنوع من البحث لا يخلو من فائدة علمية أدبية قيمة ، وهو أن نضع تاريخا لهذا النحل المتأثر بالدين.**"(٢٢).

أمّا الرواية الثانية ، فهي التي يرى فيها أنّ قريشا استكثرت في الإسلام الشعر الذي يساعدها على هجاء الأنصار(٢٣). ونكتفي بما أخذنا من مآخذ على الرواية الأولى التي من دون شك تكاد تنسحب على هذه أيضا. ويجد في **الدين** ملاذا آمنا لكي يستطرد استطراداً يكاد يقرب من التفصيل والإسهاب المخلين أحياناً في البحث العلمي إنْ لم يكونا من الضرورة بمكان؛ لذا يحاول أن يورد أمثلة كثيرة لامجال هنا لذكرها بالتفصيل ، بيد أنّنا للأمانة العلمية التي تحتمها ضرورات

البحث سنذكر أهمها بإيجاز غير مخلٍ، فيقول:" **فكان هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة،... وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهداً لبعثة النبي... لتقتنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأحبار اليهود ورهبان النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة**"(٢٤). في ظنّي هذا الرأي فيه الشيء الكثير من التجنّي على الحقائق وعلى الإسلام . إنَّ الإسلام الذي أظهره الباري- جلا وعلا- على الدين كله ورفع من شأنه ليس به حاجة لهذا الأمر. ويضيف إلى ما تقدم لونا آخر من الشعر المنحول إلى الجن ؛ إرضاء للناس الذين بأمس الحاجة إلى معجزة ، كماهي تُعد دليلا أن ما وقع كان منتظراً منذ زمن ، أضف إلى ذلك نوعاً لإعلاء شان النبي. وكذلك يذكر القصاصين وما يقصون لتفسير ما موجود في القران من أخبار الأمم السالفة كعاد وثمود... فهم يضيفون إليها كثيراً من الشعر المأخوذ بالطبع من الرواة الناحلين لهذا الشعر والواضعين له بالتأكيد بحسب وجهة نظره ويستشهد على ذلك باعتراف ابن سلام في طبقاته فيقول: في أثبات هذا الشعر وغيره إنّه موضوع منحول من قبل ابن إسحاق وسواه ومن أهل القصص(٢٥). والأمر الآخر"**حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة... ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القران كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ؛ فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القران بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية لاسبيل إلى الشك فيها عربيتها...**"(٢٦). وإنْ سلَّمنا بما يراه هنا فالأمر لايعدو ربّما نفراً ضالاً فحسب ولأسباب ومصالح أنوية ؛ لذا لايستحق الأمر كلّ هذا التعميم . ولايقف عند هذا الحد بل يزيد في هذا الأمر ويغالي فيقول :"**وهنا نوع جديد من تأثير الدين في نحل الشعر، فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته... ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصا على أن يظهروا دائما بمظهر المنتصرين ... وأي شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القران ... فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر**

العرب الجاهليين، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين... لأمر ما كان البدع في العصر العباسي عند فريق من الناس أن يرد كل شيء إلى العرب حتى الأشياء التي استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم ..."[٢٧] قد لأناتي بجديد على ما أسلفنا فيما تقدّم من أنّ هذا الآمر لو سلمنا بوقوعه فربّما كان مقتصرا على نفر دون سواهم وربّما مِمَّنْ لهم مصالح فردية ؛ لذا لايُعد وثيقة إدانة على عصر برمته ففي هذا من التجني الشيء الذي ينافي المنطق. وقد يكون محقاً بعض الشيء فيما ذهب إليه؛ لأنّ العصبية التي جاء الإسلام ليقضي عليها يبدو أنّها كانت تؤجج من حين لآخر ولأسباب مختلفة ، بيد أنّنا لانقرها كظاهرة مطلقة مسلّم بها. علينا أن لاننسى أو نتناسى أنّ الكثير من العلماء وأهل اللغة كانوا من غير العرب فلماذا يتعصبون بربّك للغة هي ليست بلغتهم ؟ وفي السياق ذاته يستطرد إلى المسيحية واليهودية قائلا:" **ليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام . وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر ، فالأمر كذلك في اليهود والنصارى : تعصبوا لأسلافهم في الجاهليين ، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين ، وأبو إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد، فنحلوا كما نحل غيرهم ونظموا شعرا أضافوه إلى السموأل ابن عادياء وإلى زيد بن عدي"**[٢٨]. عوداً على بدء لو سلمنا بأنَّ اليهود والنصارى كانوا مدفوعين بدافع عقائدي ؛ بدليل مناهضة القسم الكبير منهم للإسلام ومحاربتهم للدعوة المحمدية التي هزت عروشهم الخاوية فما بال المسلمين الذين لابد وأن طهَّر هذا الدين الجديد قلوبهم جميعا إلا أقلهم ومالذي يدفعهم للتلفيق والافتراء والتزييف؟ بهذا الشكل الذي يصوّره لنا ويحاول جاهدا إقناع نفسه قبل إقناعنا، فهو لايستثني أحداً منهم ، فكأنّهم لم يُخلقوا لشيء سوى النحل والوضع والانتحال ؛ فكأنّها عملية منظّمة ومتّفق عليها.

ويتناول مجدداً ما **للقصص** من دور خطير في قضية النحل والانتحال والوضع ، وكان قد أشار إلى هذا من قبلُ إشارات طفيفة بيد أنّه هنا يفصِّل قائلاً :"**وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين... وإذن فقد كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه. وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون. ولا أكاد اشك في أن هؤلا ء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها. ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض ، فقد حدثنا ابن سلام أن ابن إسحاق كان يعتذر عما يُروى من غثاء الشعر فيقول : لاعلم لي بالشعر ، إنما أُتَى فأحمله فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله . فمن هؤلاء القوم ؟ أليس من الحق أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النظَّام والمنسقين ، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس**"[٢٩]، وفي هذا تكلّف ما بعده تكلّف ، ما منزلة هذا القصاص بحيث له من القدرة التي تجعله يجنِّد فِرَقا من الشعراء والرواة في سبيل أن يخدموا عمله الذي لا شك لم يكن من الأهمية بمكان بحيث يستدعى مثل هذا الاستنفار وبذل مثل هذا الجهد الجهيد؟. وهنا سؤال يطرح نفسه وهو أنّ هؤلاء الرواة الناحلين والواضعين لابد وأنّهم كانوا على دراية بخبايا الشعر وأسراره لدرجة تمكنهم من أن يقولوا شعراً عالي الجودة ، هذا إنْ لم يكن في الغالب هم أنفسهم شعراء، فلِمَ لاينسبون هذا الشعر إلى أنفسهم بدلاً من أن ينسبوها إلى الآخرين ، ما المردود الذي يدعوهم إلى مثل ذلك؟ والإجابة تكون في الدرجة الأولى المنفعة ولابد أنّها مادية أليس كذلك ؟ وإنْ كانت الإجابة كذلك فكان من باب أولى أن ينسبوا أشعارهم لأنفسهم .

فليس من داعٍ أن ينسبوها لغيرهم ، فلِمَ لمْ يفعلوا ؟ ويتطرق إلى ما يمكن أن يثار من أقاويل حول العلاقة التي كانت تربط بين المسلمين من العرب- وإن كنا لانميل إلى هذا التقسيم الذي هو ليس من الإسلام في شيء- والمسلمين من غير العرب ، وما أثير من لغط- بداع أو بغيره- حول مايُسمّى **بالشعوبية** فيقول:"**أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخبارا وأشعارا وأضافوها على الجاهليين والإسلاميين. ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه**"(٣٠) مرة أخرى يترك ثغرة للرد عليه من خلال قوله :"**نحن نعتقد**"إذن جُلُّ الأمر مبني على الاعتقاد الذي يحمل- في الغالب- بين طياته الظن وربما الشك وعدم اليقين وكل هذه أمور لا تفضي بنا إلى أنْ نسير في ركبه. ليس هذا فقط كذلك قوله:" **كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم . وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم**"(٣١). وإذا سلمنا أنّ بعضاً من الشعوبيين كانت تنحل من الأشعار والأخبار ما يُسيء إلى الجاهليين؛ لكي ينتقصوا منهم ويتفاخروا عليهم بها، فلماذا يضطر كل الشعراء والرواة إلى أنْ ينهجوا النهج ذاته إلى حد يكاد أن يكون سُنة يسيرون عليها ، ثم لنا أنْ نتساءل أين هو الرادع الأخلاقي ومن قبل الرادع الديني؟ لا بل حتى الرادع السلطوي- إنْ جاز التعبير- ألم تكن هناك سلطة تُحاسب على مثل هكذا فعل ؟ الذي قد يُسيء إلى تاريخ أمّة بأكملها لا لشيء إلا لأهواء شخصية ومصالح أنوية ، فقد مرّ بنا من قبل كيف أنّ الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد نهى من قبل عن مثل هذا، فما بال العصور التي تلته ، والتي من المفترض أن القانون فيها كان أشد وأكثر محاسبة بعد أن قطع شوطا في التطور، كل هذه التساؤلات وغيرها تحتاج إلى إجابات شافية ؛ لنكون على بينة واضحة مما كان يجري في ذلك العصر. بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يشير إلى نوع من النحل مبثوث في كتاب الحيوان للجاحظ وباقي الكتب العلمية التي يبدو أنْ أصحابها انتهجوا النهج نفسه الذي سار عليه أهل الأدب من أن ينسبوا أصول كل العلوم التي لم يعرفوها قبلا إلى أصول

عربية لا لشيء إلا ليثبتوا أنَّ جل المعارف كانت موجودة عندهم و لهم بها معرفة من قبل ؛ وكل هذا بداعي التفاخر على المسلمين من غير العرب وغيرهم ، وإنْ صحت هذه الروايات فهي ليست من السوء بالدرجة التي يصوّرها، فكل هذه الأمور قد يكون فيها شيء من الصحة – ونكاد لاننكر البعض منها إنكار المتعصب بسبب من الطبيعة الانسانية التي قد يصدق عليها في بعض الأحيان أمور مثل التي ذكرت– ولكن ليس بالتجسيم والتهويل الذي يصوّره لنا(٣٢).

ويجعل من **إشكالية الرواية والرواة** خاتمة المسك لقضية النحل والوضع ، فيرى أَنَّ الرواة "**بين اثنين: إمّا أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ،وإمّا أن يكونوا من الموالي ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة ، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هي التي أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة. ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق**"(٣٣). ثم يستفيض في الكلام عن (حماد الراوية) و(خلف الأحمر) و(أبي عمرو بن العلاء الشيباني) ، ويتحدث عما كانوا عليه من مجون ولهو وعبث ومروءة فاسدة ، قادتهم إلى الكذب والنحل والوضع ؛ طمعاً بالمال وغيره من مطامع الدنيا ؛ فليس من اليسير أن نقبل منهم ما نقلوه إلينا من شعر الجاهليين...(٣٤). يبدو أنّ إشكالية الرواية والرواة تحتاج منّا إلى الإحاطة بكل ما نقل عن هؤلاء الرواة ومن ثم التثبت الذي يتطلب منّا من دون شك دراسة مستفيضة عن كل ما نقل عن هؤلاء الرواة وعن سِيَر حياتهم للوصول إلى نتائج علمية صحيحة؛ لذا لايمكننا أن نخوض في هذا الأمر أكثر– فقط – انطلاقا مما يورده ، فالأمر هنا– في ظني– يحتاج الى دراسة مستفيضة ؛ للخروج بنتائج علمية ومقبولة يرضاها منهج البحث العلمي بعيدا عن الأحكام الجاهزة ، ولنا فيما توصل إليه (د. عبد اللطيف حمودي أستاذ الأدب الجاهلي في

كلية الآداب قسم اللغة العربية) من نتائج- من خلال محاكمة النصوص القديمة التي تدين كلاً من (حماد الراوية) و(خلف الأحمر)- ما يغنينا عن الاستطراد في هذا الموضوع(٣٥) .

وأخيرا يتحدث عن **شكه في الشعر المنسوب إلى شعراء بعينهم** ، ولايأتي بجديد بل هو اجترار لما تقدم ، وقد أفاض فيه من قبل في دوافع شكه وقضية النحل. ولكن للأمانة العلمية ولكي تكتمل لنا كل الجوانب المتعلقة بعنوان بحثنا ارتأينا أن نكمل ما بدأناه ، وإنْ رأينا أن الأمر سيكون نوعا من الإعادة والتكرار؛ لذا سنوجز الأهم إيجازا . وشكّه يبدأ برأس الطبقة الأولى(امرئ القيس) ليس في شعره بل حتى في نسبه ؛ لتضارب الأقوال فيه ، خصوصا في شعره الذي يصور لنا قسماً من حياة الشاعر فهو عنده منحول لامحال لا لشيء سوى لتفسير القصص التي أُثيرت حوله ، أما القسم الآخر من شعره البعيد عن الأهواء السياسية موضوع منحول؛ ففيه من الاضطراب والإسفاف والتكلف لايُخفى إلا على من أتى قدراً كبيراً من حسن النية ، بيد أنّه يستثني منه قصيدتيه: المعلقة و(ألا أنعم صباحا)(٣٦)، رغم ذلك لايخرجهما من دائرة شكه(٣٧)، فهو يرى :"**أن امرأ القيس... يمني ، وشعره قرشي اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم ...أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره... في لغة قريش خاصة ؟ سيقولون: نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكا على بني أسد ، وكانت أمه من بني تغلب... فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن. ولكننا نجهل هذا كله، ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس ، ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منحول**"(٣٨) .يبدو أنّ لاجديد في جعبته لذا لانرى فيما يراه سوى ما قلناه فيما أسلفناه في قضيتي الشك والنحل اللتين قلنا فيهما ردوداً كانت مستنبطة من شكوكه، والأمر هنا لايختلف عما سبق فهو يسأل ثم يحاول أن يجيب بما يناسب شكوكه ؛ لالشيء سوى نسف هذا الشعر، ويتخذ من عدم ذكر حرب البسوس في

شعره وذكر خاليه المهلهل وكليب، بالإضافة إلى ما يعتور القصيدة من اختلاف وعدم ترتيب في الألفاظ ، حيث تحتمل وضع لفظ مكان الآخر. ويكرّر قوله هذا مع كل الشعراء ، بزيادة هنا ونقصان هناك ، بيد أنّ الاتهام هو هو[٣٩]. كان من كلّ بد أن نقف على ما اتخذه **مقياساً في أحكامه على صحة الشعر الجاهلي،** حيث يقول: إنّ السند ليس بكاف:" **لتصحيح ما يصل إلينا من طريقه. ولابد لنا من أن نتجاوز هذا النقد الخارجي إلى نقد داخلي ، إنْ صح هذا التعبير، إلى نقد يتناول النص الشعري نفسه في لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته**"[٤٠] بيد أنّه يعلم علم اليقين أنّ مثل هذا النقد"**ليس يسيرا ولا منتجا الآن بالقياس إلى الشعر الجاهلي. فنحن لا نستطيع أن نقول في يقين أو ترجيح علمي أن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلي أو غير ملائم، لأن لغة هذا العصر الجاهلي لم تضبط ضبطا تاريخيا ولاعلميا صحيحا ، وكل ما صح لنا منها صحة قاطعة ، ولكنها في حاجة إلى التدوين ، إنما لغة هي القرآن . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يزعم ان القرآن قد استعمل كل الألفاظ التي كانت شائعة مألوفة بين المضريين أيام النبي؟...**"[٤١]. أمّا فيما يتعلق باللفظ ومدى صلاحيته ليكون مقياسا على صحة الشعر الجاهلي، فيقول:" **لاينبغي أن تتخذ غرابة اللفظ دليلا على الصحة والقدم ، ولا ينبغي أن تتخذ سهولة اللفظ دليلا على النحل والجدة**"[٤٢] وينتقل من بعدُ إلى ما سمَّاه بالمقياس المركب قائلا:"**يجب أن ننبه من الآن إلى أننا لم نوفق بعد لمقياس علمي نستطيع أن نطمئن إليه حقا ، ولكننا مع ذلك لم نيأس من الوصول إلى مقياس أو مقاييس ، إلا تفد اليقين ، فقد تفيد الظن ، وقد تنتهي أحيانا إلى الترجيح الذي يقرب إلى اليقين . نحن لا نعتمد على اللفظ وحده ، ولا نعتمد على اللفظ والمعنى ليس غير ، وإنما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية**"[٤٣]. ولايوقف الأمر على اللفظ والمعنى وحدهما فهما لايمنعان حسب رأيه التقليد والتزييف. أمّا ما سمّاها بالأشياء الأخرى فالمقصود بها الخصائص الفنية ، والتي بالإمكان أن تُقتفى عند شاعر مثل زهير ، وكذلك عند مجموعة من الشعراء ، وإنْ هي اجتمعت–حسب

ما يرى- لمجموعة أطلقت عليها تجاوزاً مدرسة شعرية ، ومن بعدها يتحدث عن مدرسة أوس بن حجر وراويته زهير ابن أبي سلمى ، فالحطيئة ، من ثم كعب بن زهير(٤٤) .

الخاتمة

يمكن القول إنّ شكوك (د.طه حسين) كان منطلقها ومحرّكها الأساس المستشرق الإنكليزي (مرجليوث)(٤٥)الذي كان قد نشر بحثاموسوما بـ(أصول الشعر العربي)- في أخريات الثلث الأول من القرن الماضي، وتحديدا في السنة الخامسة والعشرين وتسعمائة بعد الألف أي قبل صدور كتاب (في الأدب الجاهلي) بسنة واحدة - حاول فيه أن يفتح أبوابا الشك- ربّما ايماناً منه بأنّ هناك من بني جلدة هذه الأمة مَنْ سينوب عنه للقيام بهذه المهمة على أتم وجه ، وكان حدسه في محله لوجود مَنْ قد تهيأت لهم ظروف مناسبة لإكمال دراساتهم في البلاد الغربية ؛ ليتشربوا مشاربها ويلبسوا لبوس التعصب أكثر من المستشرقين انفسهم - من خلال نسج خيوط الشك حول التراث الأدبي لهذه الأمة منطلقا في كل ذلك من المرويات الجاهلية التي كانت قد انتقلت إلينا عبر قنوات الرواة مثل (عمرو ابن أبي العلاء) - رأس المدرسة البصرية وواحد من القراء السبعة - و(حماد الراوية) - رأس المدرسة الكوفية - و(خلف الأحمر) وغيرهم من الرواة؛ إذ بنى مرجليوث ومن حذا حذوه شكوكه مما قد نقل عنهما من سيرة ذاتية يشوبها الكثير من المغالطات والأقاويل التي وإنْ كنا قد نوافق على بعضها ، بيد أنّ المنطق والعقل يكاد يلفظ معظمها لما فيها من تكلف واصطناع واضحين. والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب حقاً موقف (د.طه حسين) الذي كان يحاول أن يثبت وجهة النظر الاستشراقية التي كان قد زرع بذورها مرجليوث؛ ممّا يدعونا الى القول إنّ استشراقية مرجليوث على علاتها كانت أخف وطأة من استغرابية طه حسين- إنْ جاز التعبير- الذي كان مغالياً في جل دفوعاته وطروحاته التي تبنّتْ أفكار المستشرقين أكثر من المستشرقين أنفسهم؛ لأنّ مَنْ يقرا (أصول الشعر العربي) لمرجليوث يمكنه أن يقف على أمرين : هما من الأهمية بمكان أوّلهما ، أنه كان قد

اتبع طريقاً ديكارتياً إلا وهو الانطلاق من الشك لسبر أغوار الحقيقة وهو منهج لا اعتراض لنا عليه لأنّه في وقته يُعد سبقاً خصوصاً في الثلث الأول من القرن الماضي وتحديداً في السنة الخامسة والعشرين وتسعمائة بعد الألف ، وكان الأجدى أن نتعلم منه هذا الجانب الايجابي في بحثه أي الانطلاق من النصوص والثغرات القابلة للنفاذ إليها – وهي لاتعد مثلبة – وهي صنعة الباحث الحاذق على أن لانحاول أن نقلّده فيما يرومه وهو مَنْ هو من حيث التوجهات فنحن في كل الأحوال على دراية تامة بنوايا الاستشراق التي كان لها بداية ، بيد أنّها ستحاول أن لا تكون لها نهاية في مسعاها ؛ لأنّها لايمكن أن تتوقف عن محاولاتها التي تروم فيها النيل والانتقاص من الحضارة العربية ومكوناتها؛ لذا لانعتب على الاستشراق ولا المستشرقين لأنّهم ينطلقون من أهدافهم القومية ودوافعهم المعروفة ، أمّا أن يتبنى مَنْ هو من هذه الأمة جل الأفكار الاستشراقية ويحاول أن يطوّرها ويستميت في سبيل إثبات صحتها فتلك مسالة فيها نظر؛ لهذا فانّ الرد العنيف انصبّ بمجمله على كتاب (طه حسين) المتبني أفكار مرجليوث ؛ لأن مثل هذا الطعن إذا جاء من مستشرق لاقيمة له – فكلنا على علم بنوايا الاستشراق ومن قبل المستشرقين[٤٦]– بيد أن يتبناه أحد أبناء هذه الأمة خاصة من هو بمنزلة عميد الأدب العربي فتلك لعمري هي الطامة الكبرى هذا هو ردنا على مترجم بحث مرجليوث (د.يحيى الجبوري)[٤٧] الذي يتساءل لم كان الرد عنيفا بحق طه حسين في حين لم يُرد على مرجليوث صاحب النظرية فضلا عن أنّ مرجليوث لم يحسم القضية حسماً قاطعاً[٤٨] كما هو الحال مع طه حسين بل ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لِمَنْ يأتي بعده ويدلو دلوه ، وكأنِّي به على علم بأنّ هناك من أهلها من سيؤدي هذه المهمة خيرا منه وقد كان .

ولانجد ضيراً من الوقوف– وبشكل موجز– على أهم النقود التي طالت منهج كتاب(في الأدب الجاهلي)، فمنها ما ذهب إليه(محمد لطفي جمعة)[٤٩] ، من أنّ صاحب كتاب(في الأدب الجاهلي) لم يأخذ بالمنهج الذي ألزم نفسه به قائلا :"

أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه"ديكارت" للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث"[٥٠] فمنهج (ديكارت) هو اتخاذ الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة ، وليس اتّخاذ الشك وسيلة للشك فحسب كما فعل. ورأى آخرون[٥١] أنه لم يتعامل مع الحقائق بشكل منصف بحيث يتثبت مما يعرضه قبل أن يفترض ما هو مناسب لما يقول ، ويستشهدون على ذلك بما يأتي به من عباراته التي يصوغها في عرضه للحقائق من مثل: "فليس ببعيد"، و"فليس ما يمنع"، و"فما الذي يمنع" ثم يحاول أن يدعم ما يورده قائلا: "أمر هذه القصة إذاً صحيح"، وهلمّ جر. وفي السياق ذاته هناك[٥٢]مَنْ أعاب عليه أنّه في كتابه يؤكّد النتائج التي يتوصل إليها من دون أن يؤسس لها الأرضية الثابتة التي لامجال لرفضها ، فهو قد ربط بين الشعوبية والنحل بيد أنّه لايشير إلى المواطن التي تؤكّد ما ذهب إليه . والأمر عينه فيما يرى ما للسياسة من أثر لايستهان به في نحل الشعر ووضعه ؛ منطلقاً ممّانقل عن الخصومات والنزاعات بين القبائل قبل الإسلام وكيف أنّها كانت مدعاة للظهور على السطح من جديد بسبب أو بآخر، ويكاد هذا الأمر أن يكون معروفا للقاصي والداني وليس فيه من جديد. ومن الأمور التي أُخذتْ على مذهبه أنّه تعامل مع النصوص بشكل غير حيادي وكان يستنطقها بخلاف المنهج الذي وضعه لنفسه ممّا أثار حفيظة منتقديه الذين[٥٣] تصدّوا لآرائه بالحديد والنار– إنْ جاز التعبير– فلم يغادروا في كتابه شاردة أو واردة إلا وكانوا لها بالمرصاد ، بل في كثير من الأحيان حتى لصاحبه الذي لم يسلم من سهام النقد اللاذعة كما كان الحال مع منجزه الذي كان يأمل فيه الشيء الكثير من مثل أن يكون فتحاً جديداً وقتذاك في منهج البحث العلمي الذي عليه أن ينطلق من شكه في ما يرده من نصوص ليُحيلها على مختبر العقل بكافة مراحله قبل الأخذ به. لكلّ ما تقدّم فإنَّ ما توجه إليه من نقد ومنطلقه الأساس طلب الحقيقة ليس إلا، كنا معه وإليه نميل ؛ انطلاقا من منهجية البحث مضافا إليها احترام الرأي والرأي الآخر، بيد أننا لانميل بأي شكل مع الثاني خصوصا إنْ كان منطلقهُ الهجوم للهجوم حسب ، وهو ما يتنافى ومنهج البحث العلمي ، فخلاف الرأي في

قضية مع الآخر ليس بالضرورة بمكان أن يقودنا إلى النيل من صاحب الـرأي- بالقذف والشتم والسُّباب- بدلا من أن نُفنِّد الرأي نفسه بالأدلة والبراهين والحقـائق العلمية التي لاتشوبها شائبة كما حاولنا أن نفعل، وعسى أن نكون قد وفقنـا فيمـا ذهبنا إليه من استنطاق للنصوص ، ومن ثم محاكمتها ؛ وصولا إلى مـا يرضـي منهج البحث العلمي المنفتح على كل الآراء من دون التقييد برأي- والأخذ بـه - دون الآخر. ولله الحمد من قبلُ ومن بعدُ، هو نعم المولى ونعم النصير .

الهوامش

(١) **ينظر : مصادر الشعر الجاهلي : ص ٣٢١ ، ٣٥٢ – ٣٧٦ .**

(٢) **مستشرق انكليزي ولد في لندن سنة١٨٥٨م ، وتوفي فيها سنة ١٩٤٠م ، متخصص في اللغات الشرقية. ينظر: أصول الشعر العربي : ص ٥ .**

(٣) **ينظر : تاريخ آداب العرب : ص ٢٧٧– ٤٣٤ .**

(٤) **في الأدب الجاهلي : ص ٧١– ٧٢ ، وينظر : طبقات فحول الشعراء : ص ٢٦.**

(٥) **في الأدب الجاهلي : ص ٢٧١– ٢٧٥ .**

(٦) **نفسه : ص ٨٨ .**

(٧) **نفسه : ص ٨٠ .**

(٨) **نفسه : ص ٨١ .**

(٩) **نفسه : ص ٨٢ – ٨٣ .**

(١٠) **ينظر : نفسه : ص ٨٣ – ٨٤ .**

(١١) **في الأدب الجاهلي : ص ٨٧ .**

(١٢) **نفسه : ص ٨٨ .**

(١٣) **ينظر : نفسه : ص ٨٩ – ٩٠.**

(١٤) **نفسه : ص ١٠٣– ١٠٤.**

(١٥) **طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين : ص١٧، وينظر: الشعر والشعراء : ١ / ٨ .**

(١٦) ينظر : في الأدب الجاهلي : ص ١٢٠ .

(١٧) نفسه : ص ١٥٩ .

(١٨) نفسه : ص ١٢٣.

(١٩) ينظر : نفسه : ص ١٣٢.

(٢٠) نفسه : ص ١٣٣.

(٢١) نفسه : ص ١٣٤.

(٢٢) نفسه : ص ١٣٢- ١٣٣.

(٢٣) ينظر : طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين : ص ٢٣، وفي الأدب الجاهلي : ص١٣٤.

(٢٤) في الأدب الجاهلي : ص ١٤٧.

(٢٥) ينظر: جمهرة أشعار العرب : ص ٤٠- ٤١ ، وفي الأدب الجاهلي : ص ١٤٧- ١٥٣.

(٢٦) في الأدب الجاهلي : ص ١٥٣.

(٢٧) نفسه : ص ١٥٤- ١٥٥.

(٢٨) نفسه : ص ١٦٢- ١٦٣.

(٢٩) نفسه : ص ١٦٨- ١٦٩.

(٣٠) نفسه : ص ١٧٨.

(٣١) نفسه : ص ١٨٦.

(٣٢) ينظر : نفسه : ص ١٨٧.

(٣٣) نفسه : ص ١٨٨.

(٣٤) ينظر : نفسه : ص ١٩١- ١٩٢.

(٣٥) ينظر : حماد الراوية بين يدي القضاء الأدبي ، وخلف الأحمر بين يدي القضاء ألأدبي . بحثان منشوران: الأول في مجلة المجمع العلمي العراقي / ج ٤ / مجلد ٥٣ لسنة ٢٠٠٧ م، والثاني مجلة آفاق الثقافة والتراث الإماراتية / العدد ٣٩ لسنة ٢٠٠٢ م .

(٣٦) ينظر : جمهرة أشعار العرب : ص ٩٥ وما بعدها ، وشرح المعلقات العشر : ص٦.

(٣٧) ينظر : في الأدب الجاهلي : ص ٢١٦- ٢٢٥ .

(٣٨) نفسه : ص ٢٢٥.

(٣٩) ينظر : نفسه : ص ٢٢٦- ٢٢٧.

(٤٠) نفسه : ص ٢٨٦ .

(٤١) نفسه : ص ٢٨٦ .

(٤٢) نفسه : ص ٢٩١، وينظر : مصادر الشعر الجاهلي : ص ٤٠١ .

(٤٣) في الأدب الجاهلي : ص ٢٩٦ .

(٤٤) ينظر : طبقات فحول الشعراء : ١/ ٦٤، وفي الأدب الجاهلي : ص ٢٩٦- ٢٩٧.

(٤٥) "ولم يفترق عن مرجليوث إلا في تسليمه بأنّ هناك شعراً جاهلياً فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه الذي استند إليه مرجليوث ، وجعل يقول لك : إنني شككت في الشعر الجاهلي ، ويداعبك بقوله : ألححت في الشك ، أو قل ألحَّ عليّ الشك والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة ". نقض كتاب في الشعر الجاهلي : ص ١٧- ١٨، وينظر: أصول الشعر العربي : ص ٣٦ .

(٤٦) ينظر : في الأدب الأندلسي (مقدمة حضارية نقدية): ص ٢- ٥. والعدد ٥٦ : ص ١١١- وما بعدها .

(٤٧) ترجم بحث مرجليوث أصول الشعر العربي و وضعه بين دفتي كتاب بعد أكثر من نصف قرن على صدوره.

(٤٨) ينظر: أصول الشعر العربي : ص ٨٨ .

(٤٩) ينظر : الشهاب الراصد : ص١٠- ٢٥ ، ومصادر الشعر الجاهلي : ص٤٠٣- ٤٠٤ .

(٥٠) في الأدب الجاهلي : ص ٦٧.

(٥١) ينظر : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي : ص ١٤١- ١٤٢.

(٥٢) ينظر : نقض كتاب في الشعر الجاهلي : ص ٢٤٧- ٢٤٩.

(٥٣) ينظر : نفسه : ص ٢٧٢.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**

- أصول الشعر العربي ، تأليف : البروفيسور د. س . مرجليوث ، ترجمة : يحيى الجبوري ، ط ١، مؤسسة الرسالة ، السنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- تاريخ آداب العرب ، تأليف : مصطفى صادق الرافعي ، إخراج : محمد سعيد العريان ،
ط ٢ ، ١٩٤٠ م .
- جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد محمد ابن أبي الخطاب القرشي ، دار صادر بيروت ، د. ت.
- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، عني بجمعه وتصحيحه : الشيخ أحمد الشنقيطي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت- لبنان ، ط ٥، السنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
- الشعر والشعراء ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، طبعة محققة ومفهرسة، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت- لبنان ، ١٩٦٤ م .
- الشهاب الراصد ، محمد لطفي جمعة ، ط ١ ، دار المعارف بمصر، السنة ١٩٦٠ م .
- طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، صنعه : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي البصري المتوفى سنة (- ٢٣٢ هـ) ، طبعت هذه النسخة على نسخة خطية قديمة وقوبلت على نسخة طبع أوربا.
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ،قرأه وشرحه أبو فهر (محمود محمد شاكر) ، رقم الإيداع ١٥٤٨ ، ١٩٧٤ م .
- في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، طبعة ١٠ ، دار المعارف بمصر ، السنة ١٩٦٩ م .

- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ناصر الدين الأسد ، ط ٥ ، دار المعارف، ١٩٧٨ م .
- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، محمد أحمد الغمراوي ، ط ١، ١٩٦٦ م .
- نقد كتاب في الشعر الجاهلي ، محمد فريد ، طبعة دار المعارف بمصر، ب .ت.
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، محمد الخضر حسين ، مطابع دار المعارف، كورنيش النيل ، (ب. ت).
- **المجلات والدوريات:**
- حمّاد الراوية بين يدي القضاء الأدبي ،د. عبد اللطيف حمودي الطائي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث والخمسون ، السنة ٢٠٠٦ م .
- خلف الأحمر بين يدي القضاء الأدبي ، د. عبد اللطيف حمودي الطائي ، مجلة آفاق الثقافة والتراث الإماراتية ، العدد ٣٩ ، السنة ٢٠٠٢ م .
- في الأدب الأندلسي(مقدمة حضارية نقدية)،بقلم : الأستاذ الدكتور حبيب القيسي ، مجلة كلية الآداب ، مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية الآداب جامعة بغداد ، العددان٥٤ و٥٦ لسنة (٢٠٠١م) ، و(٢٠٠٢م) .